# ثانيًا

## تاريخ عُمان ونشاطها الداخلي
## من مطلع الإسلام حتى الآن.

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم التسلسلي : ٢٤٧٨
الرقم الخاص :

# عُمان حصن الأمان للعروبة والإسلام

للأستاذ الدكتور سعيد عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

كان علم التاريخ من العلوم النقلية التى عنى بها المسلمون عناية فائقة فارتقى على أيديهم فى سرعة مرموقة ، وتعددت آفاقه ، وتفرعت ألوان كتابته وصارت له أهدافه ومنهجه العلمى الذى يميزه عن بقية العلوم النقلية .

ومع أن كتابة التاريخ بلغت على أيدى المسلمين درجة من الرقى والسمو لا نظير لها فى العالم أجمع طوال العصور الوسطى ، سواء من ناحيتى الكيف أو الكم ، إلا أن المشتغل بالتاريخ الإسلامى تستوقفه أحيانا عدة حقائق تتطلب منه فكرا موضوعيا وحكما أمينا صادقا .

ويعنينا من هذه الحقائق أن المؤرخين المسلمين لم يوزعوا اهتماماتهم بعدالة بين كافة أرجاء الدولة الإسلامية ، وانما ركزوا عنايتهم على ما جرى ويجرى فى قلب الدولة ، وعواصم الخلافة فيها ــ فى المشرق والمغرب سواء ، وأهملوا ــ اهمالا جزئيا أو كليا ــ معظم مناطق الأطراف البعيدة نسبيا عن مراكز الخلافة وحواضر الحكم .

وتبدو هذه الحقيقة بوضوح عندما نتأمل تلك الثروة الضخمة التى خلفها المؤرخون المسلمون ، والتى تشمل مؤلفات وموسوعات متعددة الألوان ــ مثل كتب الحوليات والسير والطبقات والتراجم والانساب والخطط والآثار والوقائع والحوادث ... وغيرها . فنجدها تسلط الأضواء فى المقام الأول على أقاليم الخلافة ومدنها وحكامها وأعيانها وعلمائها ، وما كانت تموج به من تيارات سياسية وحضارية وحربية .. أما ماعدا ذلك من أعضاء الدولة الإسلامية فى المشرق والمغرب ، وخاصة الأصقاع التى لم تكن قريبة من قلب الدولة الإسلامية الكبرى ، أو من قلب إحدى الدويلات ذات الثقل التى تفرعت عنها ، فلا نجد عنها فى موسوعات التاريخ الاسلامى سوى اشارات عابرة

سريعة بحيث يظل دورها فى التاريخ كدور الجندى المجهول فى حماية أطراف الدولة وأبوابها ومداخلها ، أو فى الذود عن الاسلام وتراثه وحضارته •

وربما أحس بعض أبناء هذه البلاد فى أواخر العصور الوسطى ــ مثل القيروانى[١] والجزنائى[٢] ومرعشى[٣] والنرشخى[٤] ــ بما تعرضت له بلادهم من اهمال على أيدى جمهرة السابقين من مؤرخى المسلمين ، فعمدوا الى وضع مؤلفات محلية عالجوا فيها تاريخ بلادهم أو مدنهم أو أقوامهم •

أما الحقيقة الثانية التى تستوقف نظر المشتغل بالتاريخ الاسلامى ، فهى أن الاتجاهات الفكرية والمذهبية والسياسية لعبت دورها فى بعض جوانب الكتابات التاريخية •

ومهما قيل من سمو الكتابة التاريخية عند المسلمين ، وما بلغته من حيدة وأمانة وموضوعية ، فان علينا أن نذكر دائما أن المؤرخ بشر ، يخضع بدرجة أو أخرى ــ لعواطفه ، ويتأثر بما ورثه عن آبائه وأجداده من معتقدات ، وينفعل بما يحيط به من آراء ، وتيارات روحية وفكرية • وربما سها قلم المؤرخ أحيانا وخاصة اذا عاصر حلقة من حلقات التاريخ اضطرمت بنيران التعصب والخلاف العقائدى ، فاتّهم مذهبا مخالفا لمذهبه بالكفر أو رمى أهله بالزندقة والإلحـــاد ، بل ربما رددت بعض الأحاديث ونسبت زورا وبهتانا الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، للترويج لفكرة معينة أو تمجيد مذهب وتسفيه آخر ، من مذاهب أهل القبلة •

حقيقة ان هذه المآخذ وأمثالها ، لاتنتقص كثيرا من عظمة التراث العربى

---

(١) ابن أبى دينار القيروانى صاحب كتاب المؤنس فى أخبار افريقية وتونس •

(٢) أبو الحسن على الجزنائى صاحب كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس •

(٣) ظهير الدين بن نصير الدين ، صاحب كتاب تاريخ طبرستان ورويان ومازندان •

(٤) أبو بكر بن جعفر ــ صاحب كتاب تاريخ بخارى •

الاسلامى فى حقل الدراسات التاريخية ، ولكنها تشـــكل فى بعض الأحيان سحابة قاتمة تحجب الصورة الحقيقية لتراث أمة اختارها الله عز وجل لتكون خير أمة أخرجت للناس • ولعل هذا هو السبب فى تلك الدعوة التى انطلقت أكثر من مرة فى ربع القرن الأخير على ألسنة بعض الغيورين على صورة الأمة الاسلامية وتاريخها ، من ضرورة النظـــر فى اعادة كتابة التـــاريخ الإســـــلامى •

ولكن حدث فى كل مرة ـــ للأسف ـــ أن تتلقف بعض الحكومات هذه الدعوة لتجد فيها فرصة سانحة لتفسير التاريخ الاسلامى تفسيرا مغرضا ، يتفق وبعض النظـــريات السياسية والمذاهب الاقتصـــــادية ، أو النزعات الاقليمية ، أو المعتقدات المذهبية ، التى من شأنها أن تعمق وتشوه صورة الاسلام وتاريخ أهله ، وتضع تاريخا جديدا فى ضـــوء مفاهيم يبرأ منها الاسلام ، ويعوذ بالله منها المؤمنون المخلصون ، الأمر الذى جعلنا فى ضوء ما لمسناه واكتشفناه من اتجاهات مغرضة ، نفضل ارجاء النظر فى تنفيذ مثل هذا المشروع مؤقتا ، الى أن تصفو القلوب وتستيقظ الضمائر •

ولعله من الغريب أن نسمع بين حين وآخر عن جمعيات ومؤتمرات تعقد فى شتى أنحاء العالم المسيحى الغربى لتحقيق وفاق بين الاسلام والمسيحية والتقريب ـــ ما أمكن ـــ بين أتبـــاع الديانتين ، وقد شاركنا فى بعضها مع جمهرة من وزراء الأوقاف ورجال الفكر والدين فى العالم الاسلامى •

ومع ذلك فاننا لا نسمع عن مؤتمر واحد أو جمعية اسلامية واحدة تدعو المسلمين جمعيا ـــ على اختلاف مذاهبهم ـــ لاجتماع موحد تحت شـــعار لا اله الا الله محمد رسول الله ، ليتجادلوا بالتى هى أحسن ، ويعملوا مخلصين على ترميم تلك الشروخ التى أصابت البناء الاسلامى على مدى أربعة عشر قرنا ، ولعله مما يبعث على الأسف حقا أن يعيش أهل القبلة الواحدة اليوم ، مثلما عاش أجدادهم منذ قرون طويلة ، منشقين على أنفسهم مذهبيا ، بكل ما يحمله هذا الانشقاق من معان واخطار تهدد فى المقام الأول وحدة الأمة

الاسلامية ، وتصيب المسلمين فى صميم قوتهم ، فضلا عما يتركه هذا وذاك من انعكاسات على التاريخ وعلى كتابة التاريخ •

وكان عمان من أجزاء الدولة الاسلامية التى تعرض تاريخها للنكران على مدى قرون طويلة • ذلك أن تطرف موقعه فى الجنوب الشرقى لشبه جزيرة العرب ، وبعده نسبيا عن المسرح الرئيسى للنشاط السياسى والحضارى فى قلب الدولة ، جعله فى معظم حلقات التاريخ الاسلامى يبدو فى صورة طرف ناء من أطراف الدولة ، لا يرد ذكره فى موسوعات التاريخ الكبرى الا فى صورة اشارات متباعدة ، ترتبط غالبا بعلاقته ببعض البلدان القريبة مثل البصرة أو فارس • أما ما كان يجرى داخل عمان من تيارات محلية فكرية أو ••• حربية أو سياسية ، فلم يحظ بقدر ذى شأن فى كتابات المؤرخين المسلمين •

ومن الخطأ المبالغة فيما يدعيه بعض الباحثين بأن فقر عمان وقلة مواردها الطبيعية كانت عاملا أساسيا وراء عدم العناية بها وبتاريخها فى عصور الخلافة ، ذلك أن من يدرس تاريخ عمان فى العصـــور الوسطى الاسلامية ، يجد هذه البلاد باعتراف جمهرة الجغرافيين والرحالة ــ من أغنى أجزاء الدولة الاسلامية وأوفرها ثروة • ففيها الماء والزرع والضرع ، ولها من حسن الموقع ما جعل منها مركزا تجاريا مرموقا بين الشرق والغرب •

وقد وصف البشارى المقدسى صحار ــ قصبة عمان ــ بأنها بلد « عامر ، آهل ، حسن ، طيب ، نزه ، ذو يسار وتجار ، وفواكه وخيرات ، أغنى من زبيد وصنعاء • أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ••• » •

ثم يتتبع المقدسى مدن عمان واحدة بعد أخرى ، مؤكدا وفرة الماء فى كل منها مما جعل الحياة سهلة ، والنشاط ممكنا فى ذلك الركن من شبه الجزيرة العربية • فقال عن نزوى ــ من مدن عمان ــ « اذا غلب الوادى فى الشتاء دخـــله شربهم من أنهار وآبار » وقال « شربهم من أنهار وآبار قد التفت بها النخيل » •

وهكذا حتى أجمل كلامه عن عمان بأكملها بأنها « كورة جليلة ... كلها نخيل وبساتين ، عامة سقياهم من أنهار قريبة » .

أما ابن بطوطة الذى زار عمان فى القرن الثامن الهجرى ـ فقد وصفها بأنها « كلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل ... » . كذلك وصفها ياقوت بأنها « تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع » . هذا فى حين قال ابن خلدون عنها : « بها مياه وبساتين وأسواق ، وشجرها النخيل » .

يضاف الى الثروة النباتية والزراعية ما كانت تجنيه عمان فى تلك العصور من استخراج اللؤلؤ ، شأنها شأن غيرها من بلدان الخليج . وقد تعددت مواقع مغاص اللؤلؤ فى عمان ، وأهمها فى صور ورأس الخيمة ، وبينهما مسيرة خمسة أيام . هذا وان كان أثمن أنواع اللؤلؤ وأندره يستخرج من دما ، وهى قرية على ساحل عمان ، وقد جاء فى المصادر أن تاجرا من عمان وفد على مكة يحمل اثنين من الدر « لم ير مثلهما قط » .

علىأن ثراء عمان فى تلك العصور لم ينجم عن مواردها الزراعية والبحرية ، بقدر ما أتى من نشاطها التجارى . فالماء والزرع جعلا الحياة ممكنة وسهلة ، ولكن الموقع الممتاز هو الذى ساعد على توفير الثراء ورأس المـــال . ذلك أن الموقع الجغرافى يمثل دائما أبدا الركيزة الأساسية للنشاط التجارى ، الأمر الذى مكن شعب عمان من القيام بدور خطير من التجارة بين الشرق والغرب منذ زمن يرجع الى حوالى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد .

واشتهر من المراكز التجارية فى عمان مركزان هما مسقط وصحار . أما مسقط فكانت ميناء عمان الرئيسى ، والنافذة العريضة التى يطل منها على العالم ، فتأتى اليها السفن من السند والهند ، وتمر عليها المراكب القادمة من البصرة فى طريقها الى الصين محملة بالبضائع ، فضلا عن السفن القادمة من شرق افريقية وبلاد الزنج .

ولم يكد يختتم القرن الثالث الهجرى ( التاسع للميلاد ) حتى كان تجار

مسقط قد ارتبطوا بعلاقات تجارية وثيقة مع سومطرة وسيام وكانتون ، بل لقد اسهموا فى نقل الديانة الاسلامية الى تلك الجهات ، فضلا عن تطعيم لغاتها المحلية بمفردات من اللغة العربية •

وكان التجار العمانيون يجلبون معهم من تلك البلاد مختلف المنتجات الآسيوية كالأقمشة الحريرية والأوانى الخزفية ، وأنواع البخور والطيب ، وغيرها من البضائع التى تقام لها أسواق عظيمة فى مسقط ، ومنها تحمل عبر الخليج الى دجلة والفرات ، حيث تتفرع الطرق التجارية ، اما الى الشام ومصر ، واما الى آسيا الصغرى ، واما الى سهول روسيا شمالى البحر الأسود ••• ويشق معظمها طريقة الى أسواق أوربا •

وأما صحار فكانت المركز التجارى الثانى فى عمان ، وبينها وبين مسقط مائة وأربعة وخمسون ميلا « ويقصدها فى كل سنة من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم » • وذلك أن « بها متاجر البحر ، وقصد المراكب ، وهى أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا ، ولا تكاد ••• تعرف على شاطىء الخليج مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار ••• » •

ولاشك فى أن موقع صحار المطل على المحيط الهندى جعل منها محطة ممتازة ، تخرج منها السفن التجارية متجهة شرقا وغربا ، وترسو بها السفن للتزويد بالماء والطعام فى طريقها من أفريقية واليمن الى الهند والصين أو العكس • وهى فى جميع الحالات تحمل ألوان الغلات والبضائع من هذه الجهة أو تلك ، فضلا عن أن تجار المرور أو السفن العابرة المارة بصحار ، كانوا عند رسوهم فيها يبتاعون منها ما يحتاجون اليه من « أنواع التجارات » • لذلك لا عجب اذا وصف بعض الجغرافيين المسلمين صحار بأنها « دهليز الصين ، وخزانة الشرق والعراق ، وغوث اليمن » •

وهكذا عاشت عمان زمن ازدهار الدولة الاسلامية ، فى رخاء • وقد عاين المقدسى — فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر للميلاد — ذلك الاقليم بنفسه فقال : « والتجارات فى هذا الاقليم مفيدة لأن به غرضتى الدنيا ••• فالى

عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله — حتى المسك — والزعفران — والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندورس والصبر ، والحديد والرصاص والخيزران ، والغضار والصندل والبلور والفلفل ، وغير ذلك » •

ومرة أخرى نؤكد أن تجارة عمان فى تلك العصور الاسلامية المزدهرة لم تقتصر على ما كان هناك من علاقات مع الهند وجنوب آسيا وشرقيها ، وانا لدينا من الشواهد التاريخية القومية ما يثبت أن سفن عمان وصلت الى سفالة ( موزمبيق ) ، وأقصى شواطىء بلاد الزنج فى شرق أفريقية • وكان العمانيون يحملون شتى ألوان البضائع المطلوبة فى تلك الجهات ، ويعودون منها محملين بالذهب والعاج والرقيق والعنبر •

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أن ننوه بتجارة المرور بين الشرق والغرب ، وهى العملية التى قام بها تجار من اليهود أطلق عليهم اسم اليهود الراذانية[1] • وقد وصفهم ابن خرداذبه فقال انهم « يتكلمون العربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأندلسية والصقلبية • وأنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا • يجلبون من المغرب الخدم والجوارى الغلمان والديباج ، وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ••• » •

ثم يمضى ابن خرداذبه فى وصف الطرق التى كانوا يسلكونها فى نشاطهم التجارى ، ومنها أنهم كانوا يأتون من بلاد الفرنجة ( فرنسا الحالية ) فيسلكون طريق البحر انطاكية : « ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى

---

(١) تعددت الآراء فى تفسير أصل هذه التسمية ، ومن هذه الآراء انهم ينسبون الى حوض الرون فى جنوب فرنسا ، حيث كان مركزهم الذى ينطلقون منه واليه .

الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد • ثم يركبون فى دجلة الى الابلة ، ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين ••• »[١] •

على أنه ثمة ملحوظة أخيرة عن نشاط عمان التجارى ، هى أنه بالاضافة الى الرحلات البحرية التى اشتهر بها العمانيون ، والتى أوصلتهم بعيدا الى شواطىء البلدان الآسيوية والافريقية ، فان الروابط البرية لم تنقطع بين عمان وداخل شبه الجزيرة العربية • وقد عرف منذ القدم طريق برى تسلكه القوافل ، يربط عمان بغرب العراق وبلاد الشام ، فكانت السلع اليمنية والهندية والآسيوية تحمل برا عبر شبه الجزيرة الى أسواق الشام :

على أنه يبدو أن هذا الطريق لم يحظ بأهمية الطريق البرى الآخر الذى كان يتجه من اليمن الى الشام مارا بغرب شبه الجزيرة بحذاء ساحل البحر الأحمر • ولعل خطورة الطريق الأول وانقطاعه وقلة المحطات التجارية فيه ، بالاضافة الى ارتفاع درجة الحرارة فى الأراضى العمانية جعل النشـــاط التجارى لعمان يرتبط بالبحر •

ويبدو من المصادر المعاصرة أن هناك انطباعا عاما ساد عند المسلمين فى تلك العصور بأن عمان بلد بعيد ناء • من ذلك ما قيل من أن ابن عمر روى عن النبى ( ص ) أنه قال « انى لأعلم أرضا من أرض العرب يقال لها عمان على شاطىء البحر ، الحَجة فيها أفضل أو خير من حجتين من غيرها » •

كذلك روى عن الحسن البصرى أن المراد بقوله تعالى « يأتين من كل فج عميق » أى يأتين من عمان[٢] • وربما كان لهذا الانطباع السائد عن بعد عمان أثره فى قلة الاهتمام بأمره •

على أن هذا البعد الجغرافى من ناحية ، وضعف الروابط بين عمان وقلب

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .
(٢) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٦ .

العالم الاسلامى فى تلك العصور من ناحية أخرى ، كانا من العوامل التى ساعدت على تمتع عمان فى كثير من حلقات تاريخه بقدر من الاستقلال الذاتى الذى لم ينعم به كثير من الأقطار والبلدان والولايات الاسلامية ، الأخرى ، الأكثر قربا من مركز الخلافة والأكثر ارتباطا بعجلة النشـــاط السياسى والحضارى فى الدولة الاسلامية •

وفى ظل الاستقلال الذاتى الذى نعم به عمان فى كثير من حلقات تاريخه فى ظل الاسلام ، استطاع هذا البلد أن يحافظ على شخصيته قوية مكتملة عبر عصور التاريخ ، دون أن تتعرض للذوبان والانصهار ، أو على الأقل للتغيير والتبديل ، مثلما حدث لكثير من أجزاء الدولة الاسلامية التى فقدت بعض عناصر شخصيتها وذاتيتها فى بوتقة الدولة الكبيرة الواحدة •

* * *

وان من ينظر الى سلطنة عمان اليوم يجد هذا القطر مازال يقف شامخا فى ذلك الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية يمثل كيانا حرا له شخصيته الفريدة وسياسته المستقلة ومميزاته التى تميزه عن كافة الكيانات المحيطة به داخل الاطار الشامل الكبير وهو اطار عربى اسلامى •

وان بُعد عمان نسبيا عن قلب الدولة الاســـلامية ومركز السلطة أيام سطوة الخلافة ، جعـــل أهل عمان قادرين على الاحتفاظ بحريتهم ليس السياسية والادارية فحسب بل الفكرية والعقائدية أيضا •

فالخلافة كانت تستطيع أن تتعقب الخارجين على ارادتها المخالفين لمبادئها المعتنقين لغير مذهبها ••• كانت تستطيع أن تتعقب هؤلاء جميعا فى مصر والشام والحجاز •

ولدينا الكثير من الأمثلة عما فعله الأمويون بالعلويين فى العراق والحجاز وما فعله العباسيون بالأمويين والعلويين جميعا فى الشام والحجاز •

ولكن الخلافة العباسية لم تستطع أن تمنع قيام دولة للأمويين فى الأندلس وأكثر من دولة للعلويين فى المغرب الأقصى وافريقية ، ولم تستطع أن تقف دون انتشار المذاهب والآراء المعارضة فى اليمن وعمان وغيرهما من أطراف الدولة •

وبعبارة أخرى فان كثيرا من المذاهب والتيارات الفكرية التى خالفت سلطة الخلافة فى اتجاهاتها لم يكن أمامها سوى أن تأوى الى مناطق الأطراف فى الدولة حيث تجد مأمنا وميدانا حرا لنشاطها الفكرى والعقائدى ومنفذا طلقا للدعوة لآرائها بعيدا عن رقابة الحكام وارهابهم •

وهذا هو السر فى أن المذهب الأباضى وجد متنفسا فى عمان وافريقية •

وليس من باب المصادفة أن يكون التشيع قد وجد هو الآخر مجالا للحركة فى منطقة الخليج واليمن فضلا عن بعض أطراف العالم الاسلامى •

ولاشك فى أن هذه أمور لم ترض عنها الخلافتان الأموية ثم العباسية ، فحاولتا بين حين وآخر ارسال حملات الى عمان ــ موضوع بحثنا ــ لضرب الآراء المعارضة ولكن أهل عمان كانوا دائما بحكم موقع بلادهم وطبيعتها فى حصانة من أن تصيبهم ضربة خطيرة تحول بينهم وبين الطريق الذى اختاروا السير فيه[1] •

وفى ظل المذهب الأباضى ظهرت منذ منتصف القرن الثانى للهجرة الثامن للميلاد سلسلة من الحكام ، ارتبط بهم اسم عمان فى أزهى حلقات تاريخه فى العصور الوسطى وفجر الحديثة •

---

(١) نشير فى هذا الصدد الى الدراسة العلمية الطيبة التى قام بها الدكتور عوض خليفات بعنوان ( نشأة الحركة الاباضية ) وهو كتاب نشرته الجامعة الأردنية سنة ١٩٧٨ .

ذلك أن أئمة عمان وسلاطينها لم يقلوا عن غيرهم من حكام الدولة الاسلامية المعاصرين غيرة على الاسلام ورغبة فى الجهاد •

ثم ان عامة أهل عمان فقد عرفوا دائما بالتدين من جهة والحرص على عروبتهم وعروبة الأرض التى ارتبطوا بها من جهة أخرى •

وان نظرة يلقيها الباحث على خريطة الدولة الاسلامية لتظهر له أن الاقدار اختارت عمان ليكون قلعة أمامية للعروبة والاسلام •

وحارسا أمينا يحرس تلك البوابة الرئيسية للعالم الاسلامى فى طرفه الجنوبى الشرقى •

فبالنسبة للعروبة يحتل عمان ركنا من شبه الجزيرة العربية ، يمثل طرفا من أقصى أطراف الوطن العربى • وفى مواجهة عمان مباشرة توجد عناصر إسلامية ولكنها غير عربية ، ويشهد التاريخ على أن مطامع هؤلاء فى الأرض العربية ــ على الشاطىء المقابل لهم ــ كانت دائما واضحة وقوية وبخاصة قبل الاسلام •

وعلى الرغم من أن آخر بقايا النفوذ الفارسى طردت نهائيا من عمان فى مطلع الاســـلام ، فقد استمر الفرس يتحينون الفرصة تلو الأخـــرى للاغارة على الشاطىء العربى للخليج ، ويحاولون الاستيلاء على عمـــان بالذات •

ولكن عمان ــ حكومة وشعبا ــ وقف بالمرصاد لمثل هذه المحاولات ، وتصدى أهله بشجاعة نادرة للدفاع عن عروبة الشاطىء الغربى للخليج • بل لقد قابل أهل عمان الهجوم بالمثل ، فعبروا الى الشاطىء الفارسى ، وأقاموا لهم مستوطنات عربية هامة فى كرمان وغيرها •

وبذلك نهض عمان برسالة واضحة لحماية الكيان العربى ، وحراسة

احدى البوابات الرئيسية للوطن العربى فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العـــربية •

واذا كان الفرس الذين أغاروا على شاطىء الخليج العربى عندئذ مسلمين فان الهنود الذين دأبوا على مهاجمة شواطىء عمان والخليج ليعتدوا على البلاد والعباد ، لم يكونوا مسلمين ، وانما أطلق عليهم أهل عمان اسم « كفار الهنـــد » •

يذكر السالمى فى حديثه عن الامام غسان بن عبد الله اليحمدى سنة ١٩٢هـ ( ٨٠٨م ) أن « البوارج وهم كفار الهند يقعدون بأطراف عمان ، ويسلبون منها ، ويسبون ، ويمضون الى ناحية فارس والعراق »[١] •

ومرة أخرى لم يقف أهل عمان مكتوفى الأيدى أمام ذلك الخطر الذى هدد الوطن فى ركن من أشد أركانه حساسية • وأدرك حكام عمان ان العدو اذا اقتحم تلك البوابة الأمامية أو القلعة الحدودية على حافة الوطن العربى ، فان الطريق سيغدو مفتوحا أمامهم الى قلب الأمة العربية •

وهكذا ، لم يكتف حكام عمان بانشاء أسطول قوى من السفن الحربية لحماية شطوط عمان من قراصنة الهنود ، والدفاع عن عروبة الشاطىء الغربى للخليج ، وانما أظهروا رغبة فى تأديب الهنـــود ، وضربهم فى عقر دارهم لاستئصال شرهم ، فوقف الامام غسان فى رعاياه يقول لهم « أنا أريد حرب الهند ، وبيت المال لايكفى » • وطلب من التجار قرضا للجهاد ، يكون سداده وأداؤه من بيت المال • فعاونه التجار فى ذلك • وهذا المثل واحد من كثير •

واذا كان هذا هو دور عمان فى حماية العروبة وأرضها ، فان دوره فى حماية الاسلام وأهله وديارة ، وفى الجهاد الدينى كان أكبر وأعظم •

---

(١) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ج ١ ص ١٢٣ ( طبعة القاهرة ١٩٦١ ) •

ذلك أنه حدث قرابة منتصف القرن الرابع للميلاد ، وقبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام بنحو قرنين من الزمان ، أن تحولت الحبشة الى دولة مسيحية •

وبظهور الاسلام وانتشاره ظلت الحبشة تمثل شوكة خطيرة فى جانب الدولة الاسلامية من ناحية الجنوب ، وخاصة بعد أن انتابت الكنيسة المسيحية فى كل مكان موجة من الحسرة والألم والغضب ، لخروج بلاد كانت تعتد بها مثل مصر والشام من دائرة المسيحية الى دائرة الاسلام •

ولاشك فى أن الحبشة بالذات كانت أكثر غضبا وألما ، بعد أن تم للعرب المسلمين فتح مصر ، نظرا لأن الكنيسة الحبشية منذ قيامها كانت تابعة للكنيسة المرقسية المصرية ، بحيث كان بطريرك الكنيسة المرقسية بالاسكندرية هو الذى يعين مطرانا للكنيسة الحبشية ، كلما خلا ذلك المنصب •

لذلك أخذ الأحباش ينظرون الى انتشار الاسلام فى مصر بعين القلق ، ويراقبون تحول أهلها سريعا الى الاسلام بعين الغضب[1] •

ولما كان من الصعب على الحبشة أن توجه ضربة مباشرة ضد قلب الدولة الاسلامية ، تعبر بها عن روح الاستياء التى تملكت كنيستها وشعبها ، فانها لم تجد وسيلة لذلك التعبير فى أول الأمر سوى مهاجمة شواطىء المسلمين القريبة منها ، وخاصة فى جنوب شبه الجزيرة العربية •

وكان نصيب عمان من تلك الضربات المسيحية كبيرا منذ البداية ، حيث لم ينس المسيحيون أنه كانت هناك كنيسة مسيحية كبرى فى مزون ( صحار ) منذ القرن الخامس للميلاد ، وان هذه الكنيسة رغم ما حققته من شهرة فى

---

(١) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse d'Abyssinie, Tome 1, p. 160f &
Budge : Hist. of Ethiopia, vol. 1, p. 153f.

ذلك الركن الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، فانها لم تلبث أن ذبلت وانهارت أمام تيار الاسلام ، عندما امتد الى عمان[١] .

وربما زاد من مخاوف مسيحى الحبشة أن العمانيين فى ظل الاسلام مارسوا نشاطا تجاريا واسعا على شواطىء شرق افريقية ، حيث أقاموا مستوطنات عربية اسلامية أسهمت فى نشر الاسلام فى تلك الجهات .

على أن أئمة عمان لم يقفوا موقف المتفرج أمام تهديد الأحباش وعدوانهم على ديار الاسلام ، فأعلنوا عليهم الجهاد ، ووقفوا لهم بالمرصاد ، ولقنوهم درسا بعد آخر .

من ذلك أن امام عمان الصلت بن مالك الخروصى — فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، التاسع للميلاد — ما كاد يعلم بعدوان الأحباش على جزيرة سقطرى — جنوبى عمان — حتى جمع الجيوش وجهز المراكب ، وشحنها بالمجاهدين والسلاح ، ولقن الأحباش درسا قاسيا[٢] .

ويسترعى نظر الباحث ، العهد الذى قدمه ذلك الامام للغزاة فى تلك الغزوة ، وما يحويه من حث لأهل عمان على الجهاد فى سبيل الله ، ومن نصح للمجاهدين فى البر والبحر ، بالاعتصام بحبل الله والترابط ، ومعاملة أهل الذمة من المسيحيين وفق أحكام الشريعة الاسلامية ، والتمييز بين من يقرأون الانجيل ومن لا يقرأونه من الاعداء .

ويخطىء من يظن أن الحبشة كانت بمعزل عن الحروب الصليبية عندما دخلت مرحلتها النشطة فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر

---

(١) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ( ترجمة محمد أمين عبد الله ) ص ١٥ .

(٢) السالمى : تحفة الأعيان ، ج ١ ص ١٦٦ وما بعدها .

للميلاد • ففى ذلك الدور ازدادت هجمات الأحباش على شواطىء شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، وشواطىء عمان والخليج بوجه خاص •

هذا فضلا عما لجأ اليه ملوك الحبشة من اضطهاد المسلمين فى بلادهم[١] •

وفى مرحلة معينة من مراحل الحركة الصليبية ، لجأت البابوية والكنيسة الغربية الى السعى للانفصال بالحبشة المسيحية ، للقيام بعمل مشترك يستهدف تطويق العالم الاسلامى من الشمال والجنوب • وفعلا تبودلت الرسائل وسعى السفراء بين الجانبين ، وأعدت الحبشة قوات كبيرة للزحف على العالم الاسلامى وتدمير الحرمين فى الحجاز وغزو مصر من الجنوب[٢] •

ولكن يبدو أن صعابا عديدة اعترضت تنفيذ مثل هذه المشروعات الضخمة ، فاكتفى الأحباش بالاغارة بين حين وآخر على شواطىء المسلمين فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وخاصة فى عمان •

وفى ذلك الدور اختار حكام عمان ألا يقتصر دورهم على الدفاع وانما اتبعوا المبدأ القائل بأن الهجوم خير وسائل الدفاع •

وكان أن أخذ المجاهدون يخرجون من عمان لمهاجمة الأعداء فى عقر دارهم وحفل التاريخ بأخبار ضربات وجهها العمانيون فى تلك المرحلة من مراحل الحركة الصليبية للأحباش ، على أرض الحبشة ذاتها •

ثم كان التطور الخطير — لا فى تاريخ الحركة الصليبية فحسب ، بل فى

---

(١) Budge : Hist. of Abyssinia; vol. 1, p. 288f. &
وانظر أيضا القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٣٢ •

(٢) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٣ ص ٣٠٥ ( مخطوط ) ، وللباحث كتاب الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٩ وما بعدها •

تاريخ العالم أجمع باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد •

ومع مستهل القرن العاشر للهجرة ــ السادس عشر للميلاد ــ كان البرتغاليون قد ثبتوا أقدامهم فى الهند ، مما شكل خطرا من نوع جديد على منطقة الخليج ، فضلا عن المدخل الجنوبى للبحر الأحمر •

ومهما يقال من ارتباط هذه الخطوة بحركة الكشوف الجغرافية ، بوصفها مظهرا من مظاهر النقلة الأوروبية من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، فاننا نقرر أن المحاولات لاكتشاف طريق بحرى حول افريقية يصـــل به الأوروبيون الى الهند ، هذه المحاولات جاءت وليدة للحركة الصليبية ونتيجة من أهم نتائجها •

ذلك أن الغرب الأوربى المسيحى أدرك أن القوة الحربية الضاربة التى تمتعت بها سلطنة المماليك ، انما هى منبثقة من اقتصاد مثير وثروة طائلة ، حصلها سلاطين المماليك من وراء احتكار التجارة بين الشرق والغرب • وكان ذلك فى وقت سيطر التتار على طريق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب بحيث لم يبق منها بعيدا عن سيطرتهم آمنا من عبثهم سوى طريق البحر الأحمر ومصر •

وفى حلبة الصراع بين الغرب الأوروبى المسيحى من ناحية ، وسلطنة المماليك فى مصر والشام من ناحية أخرى ، نادت البابوية بفرض حصـــار بحرى على شواطىء مصر والشام ، لمنع التجار الأوروبيين من التردد على موانيهما والمتاجرة مع المسلمين وبالتالى حرمان المماليك من المورد الأول لثروتهم ، مما يؤدى الى اضعافهم حربيا وتمكين العالم المسيحى الغربى من استرداد بيت المقدس منهم[1] •

ولما كان الغرب الأوربى فى تلك العصور لا يستطيع الاستغناء عن

---

(١) Heyd : Hist. du Commerce, II, p. 26.

حاصلات الشرق — وخاصة التوابل — فانه كان لابد من البحث عن طريق آخر يمكن الحصول منه على منتجات الشرق الأقصى والهند •

ومن هنا بدأت الجهود المكثفة والمحاولات الغربية التى كللت فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد بالوصول الى الهند وبحر العرب عن طريق رأس الرجاء الصالح •

وبوصول البرتغاليون الى مياه بحر العرب ، يكون الغرب الأوربى المسيحى قد نجح فى تطويق العالم الاسلامى فى مرحلة من مراحل التاريخ ، نطلق عليها اسم مرحلة ذيول الحركة الصليبية •

ولاشك فى أن الوجود البرتغالى فى الهند وبحر العرب صار فى حقيقة الأمر يمثل رأس حربة موجهة الى المسلمين فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وحصر العالم الاسلامى فى الشرق الأوسط بين فكى الكماشة الصليبية •

ولا أدل على تأجج الروح الصليبية فى قلوب البرتغاليين عندئذ من أنهم سارعوا الى اجراء اتصالات مباشرة مع الأحباش للقيام بعمل حربى مشترك ضد المسلمين ، وغزو المسلمين من الجنوب فى الوقت الذى يطبق الغرب الأوربى على المسلمين من الشمال •

ولم تكن هذه الفكرة فى حد ذاتها مفاجئة للأحباش أو جديدة عليهم ، لانه من المعروف فى التاريخ أنهم سبق أن شرعوا فى اعداد حملة كبيرة فى النصف الأخير من القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر للميلاد ، للزحف على مصر والأماكن المقدسة فى الحجـــاز ، فى الوقت الذى قام بطرس لوزجنان — ملك قبرص — بحملة صليبية شهيرة على مدينة الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ ( ١٣٦٥م )[1] •

---

(١) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٤ ، العينى : عقد الجمان ج ٢٣ ورقة ٣٠٥ ( مخطوط ) ، النويرى السكندرى : الالمام بالأعلام ،سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٠ .

وعلى الرغم من عدم امكانية تنفيذ هذا المشروع فى ذلك الوقت ، فإن فكرة ضرب المسلمين من الجنوب ظلت تراود عقـول الأحباش ، فدارت مراسلات بين اسحوق الأول ملك الحبشة وملوك الغرب الأوربى حول نفس الموضوع فى أوائل القرن التالى ، وان كانت هذه الاتصالات أيضا لم تسفر عن شىء[1] .

ولكن يبدو أن الموقف تغير باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول البرتغال الى الهند وبحر العرب ، ذلك أنهم بادروا عندئذ بارسال العمال والآلات الى ملك الحبشة فى محاولة لتحويل مجرى نهر النيل عن مصر وتجويعها .

وفى نفس الوقت قفز البرتغاليون على عمان من ناحية ، ومدخل البحر الأحمر من ناحية أخرى فى محاولة لاحكام الحصار على الوطن العربى من ناحية الجنوب ، وسد المنافذ والأبواب التى يطل منها المسلمون على شرق افريقية وجنوب آسيا وشرقها .

وهكذا تعرض عمان منذ وقت مبكر — يرجع الى أوائل القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد لهجمات البرتغاليون ، ومن المرجح أن تكون أول اغارة قام بها البرتغاليون على مسقط حوالى سنة ٩١٤هـ ( ١٥٠٨م ) بحيث لم يكد ينتصف ذلك القرن حتى كانوا قد سيطروا على شواطىء عمان ، فضلا عن شواطىء شرق افريقية وموزمبيق ، حيث اتخذوا من ممباسة مركزا لهم فى تلك المنطقة .

على أن هذا الأمر لم يتم فى سهولة ، وانما واجه البرتغاليون مقاومة شديدة من عمان وأهله ، فلم تقف جهودهم عند حد الدفاع عن شواطىء عمان فحسب ، بل أيضا عن شواطىء الاسلام والمسلمين فى الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرق افريقية .

---

(1) Kammerer : Le Mer Rouge, Tome 1, partie 2, pp. 249-354.

وهكذا ظهر أهل عمان مرة أخرى فى صورة المجاهدين ، المدافعين عن الاسلام وأهله ، وما أشبه الدور الذى قاموا به ضد البرتغاليين فى بحر العرب والخليج فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بالدور الذى قامت به سلطنة المماليك فى مصر فى القرون الثلاثة السابقة ، وان كان التشبيه مع الفارق بحكم الظروف والموقع الجغرافى .

وفى مجال الجهاد ضد البرتغاليين ، سجل التاريخ صفحة ناصعة لامام عمان المؤيد ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى ، الذى شن حربا شعواء على البرتغاليين فى النصف الأول من القرن الحادى عشر للجهرة ــ السابع عشر للميلاد ــ ففتح الصير وهى جلفار ، التى كانت مركزا للبرتغاليين « فذل المشركون وطلبوا الصلح » وذلك سنة ١٠٤٣هـ ( ١٦٣٣م ) .

وظل هذا الامام صامدا للبرتغاليين رغم تفوقهم فى آلات الحرب والســـلاح حتى وفاته سنة ١٠٥٠هـ ( ١٦٤٠م ) .

وبعد وفاة الامام ناصر بن مرشد ، بويع لابن عمه الامام سلطان بن سيف بن مالك « فقام بالعدل وشمر ، وجاهد فى ذات الله وما قصر » .

وقد توج الامام سلطان جهاده ضد البرتغاليين بفتح مسقط وانتزاعها من أيديهم ثم انه استمر بعد ذلك « يجاهد أين ما يجدهم فى بر وبحر ، فاستفتح كثيرا من بلدانهم ، وخرب كثيرا من مراكبهم ، وغنم كثيرا من أموالهم » .

بل بلغ الأمر بالعمانيين انهم طاردوا البرتغاليين ولاحقوهم عبر البحار فى الهند من ناحية ، وفى شرق افريقية من ناحية أخرى ، من ذلك أن الامام سلطان بن سيف بن مالك قام بفتوحات فى أرض الهند ذاتها وأنزل خسائر جسيمة بالبرتكيسية ، ( البرتغاليين ) .

ولو كان المعاصرون من العرب عنوا بتسجيل هذه الحروب والوقائع ، لوجدنا الآن بين أيدينا صفحات خالدة فى تاريخ الجهاد ، يفخر بها كل مسلم

وكل عربى ، « ولكن الطبع غلب عليهم ، فقد جرت العادة عندهم باهمال التاريخ »[١] .

أما الامام سيف بن سلطان المتوفى سنة ١١٢٣هـ ( ١٧١١م ) فقد «حارب النصارى فى جميع الأقطار ، وعمل مراكب عظيمة ليحاربهم فى البحر» وكان أن اتسعت دائرة الجهاد فى أيامه حتى أنه غزا الهند ، ثم انتقل الى ساحل شرق افريقية ليطرد البرتغاليين من مراكزهم شمالى موزمبيق ، فاستولى على «ممباسة والجزيرة الخضراء وكلوة وبت وغيرهن من البلاد » .

وقيل أن الذى استولى على ممباسة وكلوة هو والده الامام سلطان بن سيف ، ومهما يكن من أمر فالذى يعنينا هو أن أئمة عمان واصلوا حركة الجهاد ضد الاستعمار المسيحى الغربى فى ذلك الدور ، وانهم لم يتوقفوا عند حدود بلادهم ، وانما لاحقوا العدو بين شواطىء شرق افريقية والهند ، حماية للوطن العربى الاسلامى من ناحية الجنوب [٢] .

وهنا تبرز حقيقة كبرى تسترعى انتباهنا وتتطلب منا نظرة عميقة فاحصة ، ذلك أن المتأمل فى هذه الأحداث السابقة ، يسترعى انتباهه أن عمان كان يقف وحده فى ذلك الركن من أركان العالم العربى الاسلامى ضد الاستعمار البرتغالى المسيحى .

لقد حاولت سلطنة المماليك فى مصر أن تضرب البرتغاليين فى بحر العرب — غربى الهند — فى مطلع القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد ( ٩١٤هـ = ١٥٠٨م ) ولكنهم بعد أن حققوا نجاحا ملحوظا أصيبوا بنكسة فى العام التالى فى موقعة ديو البحرية ، ذلك نتيجة لطول خطوط مواصلاتهم من ناحية فضلا عن الظروف التى أحاطت عندئذ بسلطنة المماليك وهى فى دور الاحتضار من ناحية أخرى .

---

(١) السالمى : تحفة الاعيان ، ج ٢ ص ٤٥ .
(٢) ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ص ٢٩٥ .

ولم تلبث أن سقطت دولة سلاطين المماليك أمام الغـزو العثمانى ، فبسط العثمانيون سيطرتهم على مصر والشام ومعظم أنحاء الوطن العربى •

واذا كان العثمانيون قد أبلوا بلاء حسنا فى الجهاد وحمـاية الوطن الاسلامى من الزحف الاستعمارى الاوربى ، فان دور العثمانيين فى هـذا الصدد كاد ينحصر بصفة رئيسية ، فى حوض البحر المتوسط •

أما فى بحر العرب ومدخل الخليج والشواطىء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، فان عمان وقف وحده ـ حكومة وشـعبا ـ طوال بضعة قرون ، يدافع الاستعمار الغربى بكل ما أوتيه من قوة وشراسة •

ثم ان الفتوح والغزوات الخارجية ، والحروب والمنازعات الداخلية ، لم تصرف حكام عمان فى تلك العصور عن النهوض ببلادهم ، والقيـام بسلسلة من الاصلاحات التى جعلت من بلادهم نقطة مضيئة ، يشـع منها بريق الحضارة فى ذلك الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية •

واذا كانت أخبار الحروب والمنازعات قد استأثرت بالجزء الأكبر من كتابات المؤرخين ، الا أن المؤرخ المدقق لا يصعب عليه اكتشاف الجـانب الحضارى فى التراث العمانى •

وقد أفرد ابن رزيق فصلا فى كتابه « الفتح المبين » جعل عنوانه ( ذكر مشاهير العلماء العمانية ) ذكر فيه عددا ضخما من مشاهير علماء عمـان وفقهائها وبيان بمؤلفاتهم التى أثرت المكتبة الاسلامية فى علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو وغيرها مما لا يتسع له المقام •

ولا شك فى أن الحروب والفتن التى تعرض لها عمان فى فترات القلاقل من تاريخه ، تسببت فى ضياع الجزء الأكبر من هذا التراث الفكرى الكبير الذى كان كفيلا باثراء المكتبة العربية • من ذلك ما تردد فى كتب التـاريخ من أن الفتنة التى وقعت فى عمان سنة ٢٨٠ هـ صحبها ( دفن الأنهار واحراق

الكتب[١] ومرة أخرى ، حدث عندما أغار أولاد الريس على عمان سنة ٦٧٥ هـ ، أن دخلوا العقر ( وأحرقوا مخازن المسجد الجامع المتصلة به ، وأحرقوا الكتب )[٢] .

ومع ذلك فاننا نسمع عن الامام بلعرب بن سلطان أنه أقام فى جبرين مدرسة للعلماء والمتعلمين ، وأجزل لهم العطاء ليشجعهم على الانقطاع لحياة العلم .

ومن العلماء الذين برزوا فى عمان فى ذلك العصر — فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر للهجرة ، السابع عشر للميلاد — الشيخ خلف بن سنان الغافرى ، والشيخ سعيد بن محمد بن عبيدان ، ومن الأدباء راشد بن خميس الحبسى الاعمى .. وغيرهم .

وكان للفن نصيب فى تلك النهضة ، فيصف بعض المعاصرين حصن جبرين ( بيرين ) بأنه قصر عال يجرى فى وسطه نهر جار ، به من الصنائع العجيبة والنقوشات والتصاوير مالا يحصى ولا يوصف وزينت جدرانه من الداخل بآيات من القرآن الكريم كتبت بخط جميل .

ومن الواضح أن هذا الازدهار الحضارى كان نتيجة للنشاط الاقتصادى وخاصة فى ميدان التجارة ، هذا فضلا عن الغنائم التى كان يحصل عليها المجاهدون « حتى كادت أن تفيض البيضاء والصفراء من أيدى الناس » .

وقد أدت هذه الثروة الى تمكين الائمة من « تشييد الحصون والمعاقل واجراء الأنهار ، وغرس الأشجار ، واحياء الموات[٣] ليعيش فيها الناس بأرغد عيش وأتم نعمة »[٤] .

---

(١) السالمى تحفة الاعيان ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .
(٢) ابن رزيق : الفتح المبين ص ٢٩٣ .
(٣) أى استصلاح الاراضى .
(٤) السالمى : تحفة الاعيان ، ج ٢ ص ٩٠ .

وبعد ، فلعله يتضح من هذه اللمحة التاريخية عن الخطوط العريضة لتاريخ عمان فى العصور الوسيطة ومستهل الحديثة ، أنه مهما يكن من أمر الخلافات والمنازعات الداخلية ، فان الملامح الرئيسية لصورة عمان فى تلك العصور تعطى انطباعا قويا للمؤرخ الصادق الحس بأن عمان ظل دائما قلعة أمامية للعروبة والاسلام •

ولولا صمود عمان فى وجه العجم الذين ما فتئوا يغيرون على الشاطىء الغربى للخليج مرة بعد أخرى ، لصار الخليج اليوم بشاطئيه فارسيا أعجميا ولكن أهل عمان هم أصحاب الفضل فى الاحتفاظ للشاطىء الشرقى بعروبته ، بعد أن صـــمدوا فى قوة واصرار أمام كافة المحـــاولات التى بذلها العجم للاستقرار على الجانب الغربى للخليج •

ومن ناحية أخرى ، وقف عمان وأهله بالمرصاد للمحاولات التى قام بها غير المسلمين للتسلل الى شبه الجزيرة العربية عبر بحر العرب والخليج •

وهكذا حتى ظهر الخطر البرتغالى ممثلا للتيار الصليبى من ناحيـــة والتيار الاستعمارى الغربى الجديد من ناحية أخرى ، فتصدى له العمانيون فى قوة وحزم ، وضربوا مثلا رائعا فى قصة الجهاد وبذلك حموا ذلك الركن المتطرف من أركان العالم الاسلامى من هجمة شرســـة قام بها عدو له من الامكانات وقوة السلاح ما كان كفيلا بأن يحقق له سبقا وتفوقا كاسحا ، لولا أنه اصطدم بقوة الارادة ••••• ارادة أهل عمان •

ويزيد من خطورة الدور البطولى الذى نهض به عمان فى حماية العروبة والاسلام أن حلقاته الرئيسية جاءت فى وقت ضعفت فيه الخلافة العباسية وانحلت أمورها ، وتفككت أوصالها ، حتى سقطت فريسة ســـهلة أمام تتار هولاكو والوثنيين الذين أقاموا منذ منتصف القرن السابع للهجرة ـــ الثالث عشر للميلاد دولة فى فارس والعراق استمرت بضعة قرون •

وجاء ذلك مصحوبا بازدياد أطماع العالم المسيحى فى الوطن العربى

الاسلامى فبدأت مرحلة من مراحل التاريخ ترك فيها أمر الدفاع عن كل ركن من أركان العالم الاسلامى لقوة محلية تزعمت حركة الجهاد فى ذلك الركن •

وهكذا قام المرابطون والموحدون بالدفاع عن المغرب العـربى وقام الأيوبيون ثم المماليك بالدفاع عن منطقة الشرق الادنى ، وقام العمانيون بالدفاع عن منطقة الخليج وبحر العرب والشـواطىء الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية •

وبعبارة أخرى فان عمان كان يمثل فى العصور الوسـطى وصـدر الحديثة مركزا من مراكز ثلاثة نهضت فى أمانة واصرار بمهمة الدفاع عن العروبة والاسلام فى ذلك العالم الفسيح الممتد من المحيط الى الخليج •

واذا كانت سلطنة بنى عثمان قد ظهرت على المسرح لتحل محل القوى الاسلامية فى حوض البحر المتوسط فى تحمل مسئولية الجهاد ، فان دور الدولة العثمانية ظل محدودا فى حماية شواطىء شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج وبحر العرب مما ترك عمان شبه وحيد ليقوم بدوره البطولى الذى اختاره له القدر فى حماية تلك المنطقة •

وهنا لابد لنا من كلمة أخيرة فى الموضـوع هى أن الكتاب والمؤرخين الغربيين دأبوا فى كتاباتهم على دمغ حركة الجهاد الاسـلامى فى الخليج وبحر العرب بطابع القرصـنة ، فالمجاهـدون المسلمون الذين دأبوا على الخروج من موانى عمان والجزر الواقعة عند مدخل الخليج للتصدى لسفن الأوربيين ليسوا فى نظرهم الا قراصنة هددوا حرية الملاحة وقطعوا الطريق على التجار الآمنين دون أن يكون لهم أى هدف سوى السلب والنهب •

لقد نسى هؤلاء الكتاب المغرضون أو تناسـوا حقيقـة هامة هى أن الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين ، اتصفت فى جميع حلقاتها وكافة أدوارها بطابع الاغارة على شواطىء العدو والتربص لسفنه ومتاجره •

هذا الى أن الجهاد عند المسلمين ليس فى البر فقط وانما كان أيضا فى البحر ، حتى أطلق على رجال الأسطول فى الدولة الاسلامية اسم المجاهدين .

ثم لماذا نسلط الأضواء على ما قامت به السفن الاسلامية والمجاهدون المسلمون من تصد لسفن الاعداء لأسر من فيها والاستيلاء على ما تحمله من أموال وبضائع وننسى ما قامت به سفن القوى الأوروبية وخاصة الايطالية من عدوان وسلب ونهب على شواطىء افريقية وتونس فضلا عن شواطىء مصر والشام فى عصر الحروب الصليبية وحتى القرن السادس عشر للميلاد .

نعم ، لماذا يغمض هؤلاء عيونهم عما جاء فى مصادر التاريخ المعاصرة من أن بعض الجنوية صادفوا سفينة اسلامية موسوقة بالبضائع ، وهى فى طريقها من الاسكندرية الى طرابلس الغرب ، فأسروها وذهبوا بها الى قبرص سنة ٧٧٠ هـ ( ١٣٦٨ م )[١] ؟

لماذا لا يشيرون الى ان الفرنج أخذوا سنة ٨٢٧ هـ ( ١٤٢٣ م ) مركبين من مراكب تجار المسلمين قرب ثغر دمياط ، فيهما بضائع كثيرة وعدد من الناس يزيدون عن مائة رجل ؟ لماذا لا يلمحون الى أن القراصنة الأوروبيين سرقوا فى عرض البحر المتوسط سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباى سلطان المماليك فى مصر الى السلطان مراد العثمانى[٢] وهذه الأمثلة قليل من كثير .

ان ما فعله العمانيون وغيرهم من أهل الخليج ضد السفن والمتاجر غير الاسلامية كان وجهة نظرهم — ووجهة نظر العصر الذى عاشوا فيه — ضربا

---

(١) النويرى السكندرى : الالمام بالاعلام ، ج ١ ورقة ٩٨ أ — ٩٩ ب من النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .
(٢) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣٨ .

من ضروب الجهاد ولا يتجاوز بأى حال ما كان يفعله نصارى الفرنج بالسفن والمتاجر الاسلامية طوال قرون عديدة ، فى قلب ديارهم ومياههم •

اذا أغار الفرنج على بلاد المسلمين واحتلوا أرضـــهم وأقاموا عليها الحصون والقلاع وتحرموا فى مياههم وتربصوا بسفنهم وأسروا من فيها من رجال ، ونهبوا ما فيها من أموال وبضائع •• عندئذ تغمض العيـــون وتتوقف الأقلام وتسدل الستائر ، ويعتبر هذا عملا انسانيا مشروعا فيـــه شفاء لقلوب رجال الكنيسة الغربية وأتباعها •

أما اذا خرج المسلمون فى البحر لدفع عدو ترك بلاده فى أقصى الغرب الأوربى وقطع آلاف الاميال الى أقصى الشرق ليهدد البـــلاد والعباد فى أوطانهم وأرزاقهم وينهب ثرواتهم الطبيعية ، فعندئذ يصـــبح المســـلمون قراصنة يباشرون عملا غير مشروع يتعارض مع القانون •••• قانون الغاب•

ان أسوأ ما يمكن ان يقع فيه المشتغل بالتاريخ هو أن يقيّم عصورا مضت بمعايير العصر الذى يعيش فيه فلكل عصر قيمه ومثله ونظرته الى الحياة ومقاييسه التى يقيس بها الأمور ويزن بها الأحداث •

وثمة خطأ آخر يمكن أن يقع فيه الباحث فى التاريخ هو أن ينظر الى الأمور بعين واحدة فيغبن جانبا لحساب جانب آخر وينظر بعين الرضا الى فريق ولكنه ينظر بعين السخط الى فريق آخر •

ولكن مهما تتباين وجهات نظر المؤرخين وتتضارب أقوال الباحثين ، فان هناك حقائق كبرى فى التاريخ تظل قائمة شامخة لا شك فيها ولا جدال حولها •

ومن هذه الحقائق ان عمان ظل منذ دخول أهله فى دين الله يمثـــل قلعة أمامية حصينة للعروبة والاسلام •

**أ • د / سعيد عبد الفتاح عاشور**